



سنة التدافع

(012) سورة يوسف

خطبة جمعة

2026-03-06

سورية - دمشق

مسجد عبد الغني النابلسي

يا ربنا لك الحمد، ملء السماوات والأرض، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، عني كل فقير، وعز كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومقرع كل ملهوف، فكيف نفتقر في غناك، وكيف نضل في هداك، وكيف نذل في عزك، وكيف نضام في سلطانك، وكيف نخشى غيرك، والأمر كله إليك، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرسلته رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، ليخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات، فجزاه الله عنا خير ما جزي نبياً عن أمته.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد، وعلى أزواج سيدنا محمد، وعلى ذرية سيدنا محمد، وسلم تسليماً كثيراً.

لله تعالى في خلقه سُنة لا تتغير ولا تتبدل:

وبعد أيها الإخوة الأحباب: لله تعالى في خلقه سُنة، سُنة لا تتغير ولا تتبدل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً، فسُنة الله ثابتة ماضية، مُد خلق الله الأرض ومن عليها وإلى أن تقوم الساعة، هي سُنة تُشبه القوانين الثابتة، المُقدّمات تُعطي النتائج، ومن سُنة الله تعالى في خلقه ثلاث سُنة: سُنة المداولة، وسُنة التدافع، وسُنة الاستخلاف والتمكين، وهذه السُنة الثلاثة تتداخل فيما بينها، فتبدأ بالتدافع، فتنتقل إلى المداولة، فيدور الأمر من فلان إلى فلان، ثم يستقر الأمر على الاستخلاف والتمكين لأهل الحق والإيمان، فإذا راقبت التاريخ وقرأته، وجدت هذه السُنة الثابتة لا تتبدل، وأثناء هذه السُنة الثلاثة، سُنة رابعة مستمرة، تعيننا كثيراً لأنها تُحدّد موقفنا، وهي سُنة التمحيص، الفرز.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلِيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141)

(سورة آل عمران)

فأثناء هذه السُنة، يظهر موقف المؤمن، ويظهر موقف المنافق، ويظهر موقف الكافر، ويظهر موقف الجاحد، وكل يأخذ موقفه فيُفرز الناس، فيستحق أهل الجنة الجنة، ويستحق أهل النار النار، هذا معنى السُنة.

السُّنَّةُ الْأُولَى هِيَ سُنَّةُ الْمُدَاوَلَةِ:

السُّنَّةُ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السُّنَنِ الثَّلَاثَةِ هِيَ سُنَّةُ الْمُدَاوَلَةِ، قَالَ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140)

(سورة آل عمران)

فلا يمكن أن تستمر العَلَبَةُ لأهل الحقِّ، ولا يمكن أن تستمر العَلَبَةُ لأهل الباطل، لا بُدَّ من المداوَلَةِ، هذه سُنَّةٌ مهمَّةٌ جدًّا، يقول ابن القيم رحمه الله: "إِنَّ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ إِدَالَةٍ عَدُوِّهِ عَلَيْهِ، وَعُغْبَتِهِ لَهُ، وَإِيدَانِهِ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، أَمْرٌ لَازِمٌ لَا بُدَّ مِنْهُ" هذا معنى سُنَّةٍ، أمرٌ لازم، لا بُدَّ أن يكون لعدوِّك دولةٌ عليك، على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الجماعات، وعلى مستوى الأمم، كيف أنَّ هناك حراً وبرداً هذه سُنَّةٌ، تأتي أيامٌ حُرٌّ شديدٌ وأيامٌ برٍّ شديدٌ، كيف أنَّ هناك هموماً وغموماً في الحياة لا يسلم منها أحد، كيف أنَّ هناك مرضاً خفيفاً، أو متوسطاً، أو شديداً، لكن لا بُدَّ منه، هذه سُنَّةٌ لا بُدَّ منها، كذلك لا بُدَّ أن يكون هناك إدالَةٌ لعدوِّك عليك، ثم إدالَةٌ لك على عدوِّك. هذه سُنَّةُ الحياة.

عندما يفهم الإنسان السُّنَنَ يتعامل معها وفق هذا المنظور، وهذه المداوَلَةُ ليست خطباً عشوائياً، ليس الأمر عشوائياً، تكون الدولة لفلان ثم لفلان، من غير حِكْمَةٍ، حاشا لله، فالكون كله يجري بحكمة الله تعالى، أثناء هذه المداوَلَةِ يُمَخِّصُ الله الذين آمنوا، أثناء هذه المداوَلَةِ يَمَحَقُ الله أهل الكُفْرِ، ويَمَحَقُ الله أهل الإِجْرَامِ (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) يَتَّخِذُ شُهَدَاءَ جُلَّ جلاله، يرتقون إليه أثناء هذه المداوَلَةِ، ويظهر إيمان المؤمن الحقِّ، ويظهر نفاق المنافقين، هذه أحوال الدنيا بين أيديكم، في المداوَلَةِ كم أصبح الحاكم طريداً، محكوماً، لاجئاً، وكم أصبح اللاجئ آمناً في وطنه، هذه هي المداوَلَةُ.

السُّنَّةُ الثَّانِيَةُ سُنَّةُ التَّدَاوُعِ:

السُّنَّةُ الثَّانِيَةُ وَالتِّي هِيَ مَحْوَرُ حَدِيثِنَا، سُنَّةُ التَّدَاوُعِ، بِمَعْنَى أَنَّ هُنَاكَ جَهَنَانِ تَدْفَعُ كُلُّ مَنِهْمَا الْأُخْرَى بِقُوَّةٍ، لِتُزِيلَهَا وَتَكُونَ مَكَانَهَا، هَذِهِ هِيَ سُنَّةُ التَّدَاوُعِ، جَهَنَانِ قَوْيَتَانِ، رُبَّمَا إِحْدَاهُمَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى لَكِنْ تَتَزَاوَعَانِ، تَرِيدُ كُلُّ مَنِهْمَا أَنْ تَزِيحَ الْأُخْرَى بِقُوَّةٍ وَتَكُونَ مَكَانَهَا.

من يَحْلُمُ أَنْ يَنْتَهِيَ الصَّرَاعُ وَالْحُرُوبُ فِي الْعَالَمِ، فَهُوَ وَاهِمٌ، أَصْحَابُ السَّمَاءِ صَافِيَّةٌ وَالْعَصَافِيرُ تُزْقِزِقُ، هَذَا لَيْسَ مَوْجُوداً إِلَّا فِي خِيَالِهِمْ، لَيْسَ هُنَاكَ حَالَةٌ فِيهَا سَلَامٌ عَامٌ، نَرْجُو ذَلِكَ لَكِنَّهُ لَيْسَ مَوْجُوداً، أَقْرَأُوا التَّارِيخَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ حَالَةٌ إِلَّا فِيهَا مُدَافَعَةٌ، فَإِذَا أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْحَقِّ أَقْوِيَاءَ، فَيَدْفَعُوا الْبَاطِلَ دَفْعاً وَيَجْلُوا مَكَانَهُ، وَإِذَا أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْبَاطِلِ فَيَحَاوِلُونَ إِزَاحَةَ أَهْلِ الْحَقِّ، وَيَفْعَلُونَ بَعْضاً مِنْ ذَلِكَ، لَكِنْ لَا يَنْفَرِدُ الْبَاطِلُ بِالسَّاحَةِ، يَبْقَى لِأَهْلِ الْحَقِّ مَكَانُهُمْ، لَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الْمُدَافَعَةِ، قَالَ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَهَرَمُوهُمْ يَادُّنَ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُودَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)

(سورة البقرة)

وقال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّوَامِعُ وَبَيْنَ وَصَلَاوَاتِ وَمَسَاجِدَ يُدْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۚ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)

(سورة الحج)

الْمُدَافَعَةُ تَوَدِّي إِلَى حِفْظِ الدُّنْيَا وَحِفْظِ الدِّينِ:

فِي الْحَالَةِ الْأُولَى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) صَلَاحُ الدُّنْيَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْمُدَافَعَةِ، وَفِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ: (لَفَسَدَتِ السَّوَامِعُ وَبَيْنَ وَصَلَاوَاتِ) صَلَاحُ الدِّينِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْمُدَافَعَةِ، لَا تَصْلُحُ الدُّنْيَا إِلَّا بِالتَّدَاوُعِ، وَلَوْ كَانَ قَاسِياً أَحِبَّاءُ، وَالْحُرُوبُ مُرْعَجَةً، وَلَا أَحَدٌ يُجِبُّ الْحَرْبَ، وَكَمَا قَالُوا: لَا شَيْءَ جَمِلاً فِي الْحَرْبِ إِلَّا انْتِهَآؤُهَا، أَجْمَلَ مَا فِي الْحَرْبِ أَنْ تَنْتَهِيَ الْحَرْبَ، لَكِنْ سُنَّةُ اللَّهِ أَنَّ هَذَا التَّدَاوُعَ تَصْلُحُ بِهِ الدُّنْيَا، وَأَنَّ هَذَا التَّدَاوُعَ يُقِي الدِّينَ حَيًّا، لَا تُهْدَمُ الْمَسَاجِدُ بِحُكْمِ التَّدَاوُعِ الَّذِي يَكُونُ، بِعَيْنِ الْيَوْمِ أَهْلُ الْكِرَامِ، قَالَ لِي أَحَدُهُمْ يَوْمًا: وَاللَّهِ أَنِّي لَأَعْجَبُ أَشَدَّ الْعَجَبِ، مِنْ هَذِهِ الْهَجْمَةِ الشَّرْسَةِ عَلَى دِينِ اللَّهِ!! لِمَاذَا!!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا تَقُومُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8)

(سورة البروج)

لماذا يُسَخَّرُونَ إعلامهم كله لتشويه صورة الدين؟ ليت الشبهات والشبهات، لماذا يُحاربوننا؟ لماذا يقصفوننا؟ لماذا يُيدوننا؟ لماذا؟ أعجب من هذه الهجمة الشرسة! قلت له: والله أنا أعجب منك، ولكنني أعجب أكثر من أنهم منذ أكثر من مئة عام، وهم يحاولون التيل منا ولم يستطيعوا، هذا الذي أعجبه، بكل ما أوتوا من قوة، وبكل إعلامهم، قلت له: والله إني لأعجب أن مساجدنا ما زالت مُمتلئة، وأن شبابنا ما زالوا يُقبلون على كتاب الله تعالى، وأنا ما زلنا مُتمسكين بديننا وتُقيم شعائره، قلت له: هذا الذي أجده أشدَّ عجباً من عجبك (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوحُكُمْ وَبُيْعُكُمْ وَصُلُوحُكُمْ وَمَسَاجِدُكُمْ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا) هذه المُدافعة مهما اشتدت، لكن الله عز وجل يُسخرها لخدمة دينه، ولتبقى الرأية مرفوعة، رأية لا إله إلا الله.

أيها الإخوة الكرام: إذا المُدافعة تؤدي إلى حفظ الدنيا وإلى حفظ الدين.

اليوم مما انتشر من صور نراها جميعاً على الشاشات، أهلكنا في غزاة بعد سنتين من الحرب وأكثر، تحدهم يُصلون في خيامهم صلاة القيام، وتجدهم يُصلون على أنقاض مساجدهم، بأعداد أكبر بكثير مما كانت قبل الحرب، فما زادهم إجماع هؤلاء إلا تمسكاً بدينهم، ويقتنون ويدعون للأمة الإسلامية في أصقاع الأرض، لأننا أمة الجسد الواحد وأنت تعجب من حالهم، نقول: نحن ندعو لهم فإذا بهم يدعون لنا أيضاً، فتدمع عينك وأنت تُشاهد حالهم مع الله تعالى بعد هذه المحاولات.

لا تُصدِّقوا أنَّ هناك حرباً اقتصادية وهي موجودة، هناك حرب من أجل منابع النفط، ولا أنَّ هناك حرباً لبسط النفوذ والسيطرة وهي موجودة، لكن أصل الحرب ما هو؟ الدين، هي حرب دينية لأنهم يعلمون إما أن نكون نحن أو يكونوا هم، فهم يُحاربوننا دينياً، اليوم كان القساوسة حول القاع في البيت الأسود، كانوا حوله يرتلون له الترانيم، لحمايته ونصره في حربه اليوم، موجودة على الشاشات، ويوم دخلت روسيا إلى سوريا لتقصيف وتضرب قالوها بصريح العبارة: جئنا لُحارب أهل السنة، ولن نسمح لهم بالحكم في سوريا، فالحرب في الأصل هي حرب دينية، تليس لبوساً اقتصادياً، لبوساً اجتماعياً، لبوساً نفطياً، سمَّه ما شئت، لكن في الأصل هم يُحاربون ديننا (وَمَا تَقُومُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ).

لا يمكن أن ينفرد أهل الباطل بالساحة:

أيها الإخوة الكرام: لا يمكن أن ينفرد أهل الباطل بالساحة، يبقى دائماً مساحةً مُضيئة للحق، وهذا من آثار سنَّة التدافع.

ورقة بن نوفل لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال له:

{ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْهُ مِثْلَ قَلْبِي الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبَّتْ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَحُلُو بَغَارَ جِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَلِيلٌ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِيهِ، وَيَتَرَوَّدُ لَذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِجَةَ فَيَتَرَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارٍ جِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَقَطَّعَنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَقَطَّعَنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَقَطَّعَنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} [العلق: 1-3] فَارْجِعْ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: رَمَّلُونِي رَمَّلُونِي فَرَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرُّؤْيُ، فَقَالَ لَخَدِجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبْرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الصَّبْفَ، وَتُعِينُ عَلَى تَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَمْلَقَتْ بِهِ خَدِجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنِ تَوْقَلٍ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَّى ابْنِ عَمِّ خَدِجَةَ وَكَانَ اقْتَرَأَ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنِّي ابْنَ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي تَرَى اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْ مُخْرِجِيَّ هُمْ، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمَئِذٍ أَنْصُرَكَ تَصْرًا مُؤَرَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْسَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُؤْفِّي، وَقَتَّرَ الْوَحْيُ، وَقَالَ: يُونُسَ وَمَعْمَرُ بَوَادِرِهِ {

(أخرجه البخاري ومسلم)

هذه سنَّة التدافع، سيُعاديك الناس، وسيقفون ضدك، لأنَّ دينك يبغي ضد مصالحهم، لأنَّ دينك يمنع عُجبهم وطُغيانهم وتحكُّمهم بالبشر، وسيطرتهم على الموارد، دينك دين عدلٍ، سيُعطى الناس حقوقها، لن يسمح بوجود السادة والعبيد، قال: (إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمَئِذٍ أَنْصُرَكَ تَصْرًا مُؤَرَّرًا).

التدافع نوعان:

أيها الإخوة الكرام: والتدافع نوعان:

1 - تدافع بين أهل الحق وأهل الباطل:

النوع الأول تدافع بين أهل الحق وأهل الباطل، وهذا معروف، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا يَزَالُونَ يُبْعِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَزُدَّكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتِطَاعُوا ۖ وَمَن يَزِدْكُمْ مِّنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217)

(سورة البقرة)

يَبِّنُ الله تعالى بشكلٍ واضحٍ، أنَّ القتال من أجل أن تُردَّ عن ديننا، هذا تدافع بين أهل الحق وأهل الباطل.

2 - تدافع بين أهل الباطل أنفسهم:

وهناك تدافع آخر بين أهل الباطل أنفسهم، يتدافع الباطل مع الباطل، ويتدافع الظالم مع الظالم، وهذا يكون من أجل السيطرة، من أجل النفط، من أجل النفوذ، من أجل استعادة أمجاد امبراطوريات بائدة، يتصارع أهل الباطل فيما بينهم، أمّا أن يكون هناك مُدافعة بين أهل الحق وأهل الحق، فهذا لا ينبغي أن يكون، بل أهل الحق يتناصرون، يتعاونون، يتناصحون، يتبادلون، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129)

(سورة الأنعام)

إذاً يتدافع أهل الحق مع أهل الباطل، ويتدافع أهل الباطل مع أهل الباطل، لكن لكلِّ مشروعته، فتتعارض المشروعات فيتناحر أهل الباطل فيما بينهم، عندما يتدافع أهل الحق مع أهل الباطل ما موقف المؤمن؟ أن يقف مع الحق وأهله، هذا لا خلاف فيه، تنازع أصحاب حقٍّ، أصحاب أرضٍ، أصحاب عقيدةٍ، أصحاب دينٍ، أصحاب عقيدةٍ سليمة وسلوكٍ مستقيم، تنازعوا مع أهل الباطل، فانا أقف مع أهل الحق، وإن فعلت غير ذلك فهذه ثلمةٌ عظيمةٌ في الدين، وهذا يفاق وأيُّ يفاق؟!

لا يصحُّ أن نقف مع ظالمٍ ضد ظالمٍ فكلاهما ظالم:

أمّا عندما يتصارع أهل الباطل فيما بينهم، فهل يكفي أن أقول كما يقول البعض اليوم: اللهم اضرب الظالمين بالظالمين، دعاءٌ جميل لكنه لا يكفي، لأنَّ المشروعين يقتتلان، ما مشروعني أنا المسلم؟ هما يقتتلان من أجل النفوذ والسيطرة، لكن أنا ما مشروعني؟ ما الذي ينبغي أن أفعله؟ لا بُدَّ أن نُعيدَّ العُدَّةَ، ولا يصحُّ أن نقف مع ظالمٍ ضد ظالمٍ فكلاهما ظالم، وكلاهما عدو.

إنَّ من يستنبح دماء ظالمٍ اليوم لن يتركنا غدًا، وهو لا يستنبحه أصلًا من أجل أنه ظلمنا، اليوم لا يضربون إيران لأنها ظلمت السوريين، لا أبدًا، لو أرادوا أن يضربوها لضربوها عندما طلَّقت السوريين، لكن يضربونها لأنَّ وظيفتها انتهت، لأنَّ مهمتها انتهت، هم كانوا يتفجرون عليها، بل يدعمونها لثمةٍ قتلاً في السوريين والعراقيين واليمنيين وغيرهم، هم يُمدِّدونها، لا يسكتون عنها فقط بل كانوا يُمدِّدونها، وأيُّ مددٍ أعظم من أن تتركها تفعل ما تشاء، وتترك لها الحبل وأنت قادرٌ على إمساكها، لكن كانت لها مُهمة، الآن انتهت مُهمتها، فلا بُدَّ من القضاء عليها، فهم لا ينتصرون لنا حتى نفرح بهم، هم مجرمون، قتلوا، ظلموا، وعندما يتنهنه منها سيفترعونَ لغيرها.

من حقنا أن نفرح لهلاك المجرم الظالم:

أيُّها الإخوة الكرام: نحن السوريين من حقنا أن نفرح لهلاك المجرم الظالم، ولو بأيدي أعدائنا، لا نستطيع أن نقول لمكولوم: لا نفرح بهلاك ظالمك، هذا ليس من العدل ولا من الإنصاف، وهذا شعورٌ طبيعي، وهو مصداقٌ لوعد ربنا بإهلاك الظالمين، ولكن يجب أن نكون أيضاً واعين لما يُحاك ضدنا، فالحرب القائمة اليوم ليست ذات هدفٍ واحد، وإنما وراء الأكمة ما وراءها.

أيُّها الإخوة الكرام: نحن نفرح لهلاك المجرمين، ولكننا في الوقت نفسه نفرح لكل أذىٍ يُصيب الصهاينة المُعتدين، الظالمين، الذين قتلوا أهل غزّة وغيرها، والذين يسعون بكل جهدهم، لبسط سيطرتهم ونفوذهم والقضاء على ديننا، فقرحنا بهلاك مُجرمٍ لا يعني تصفيقنا للمُجرمِ آخر، وفرحنا بهلاك مُجرمٍ لا يعني أننا لا نفرح لهلاك الآخر، والله تعالى يتولى الأمر، وهو يدفع البعض بالبعض، لحكمةٍ يعلمها جلّ جلاله.

أيُّها الإخوة الكرام: في القديم كان هناك صراعٌ وتدلُّعٌ بين الفُرس والروم، وكذا كان بين العرب بين القبائل، تدافعٌ مُستمر، ثم جاء الإسلام فصار التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل، الفُرس والروم من جهة والإسلام من جهةٍ أخرى، حتى صار الاستخلاف والتمكين للمسلمين، وحكموا الأندلس ثمانمئة عام، سنَّة التدافع، المُداولة، الاستخلاف والتمكين، وبينهما جميعاً التمحيص، وهذا الذي يعينني أنا المسلم، أين أنا من هذا؟

لا بُدَّ للمُسلم أن يبذل الأسباب ويستفيد من تناقضات الباطل في نشر الدعوة:

في عصرنا الحديث برز في وقتٍ مُعَيَّن نجم بريطانيا، وأصبحت قوةً كبيرة، وصارت تتدافع مع غيرها من الدُول للسيطرة، ثم غاب شمسها وأقل نجمها، بعد ذلك ظهر الاتحاد السوفييتي، وأصبح يتبارز مع أمريكا على النفوذ والسيطرة، ثم انهار بين ليلٍ وضحاها، وما كان يتخيَّل إنسانٌ أن ينهار، لكنه انهار، طبعاً انهار بما فيه من إلحادٍ وبطشيٍّ وظلمٍ إلى آخره...

اليوم أُنْهِيَ الإخوة الكرام: صار التنازع على السيطرة وعلى الأرض، وما يزال مُستمرّاً، وتُريد اليوم ما يُسمّى القطب الواحد أمريكا، أن تُسيطر وأن ينتهي التدافع، وأن تكون لها الغلبة المُطلقة، وأن يُصبح الجميع تحت سيطرتها، هذا هدف الحرب وهم يُعلنونه دائماً، لأنه لا يُريدون لأحد أن يُدافع، أو أن ينهض، أو أن يقول، يُريدون السيطرة الكاملة ولكن لن يتحقّق لهم ذلك، وهذا أمرٌ يُستقى من حركة التاريخ، ويُستقى قبل ذلك وأهم من ذلك من وعد الله تعالى، بأنه لا يمكن أن يُسيطروا بحيث لا يبقى للحقّ وأهله مساحة.

اليوم لا بُدّ للمُسلم أن يبذل الأسباب، ويستفيد من تناقضات الباطل في نشر الدعوة، وفي الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، وأن نزيد من تآلفنا، وتماشكنا، ومحبتنا، وتمسكنا بدين ربنا، التزاماً، سلوكاً، دعوةً، تطبيقاً.

أُنْهِيَ الإخوة الكرام: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم، واعلموا أنّ مَلَك الموت قد تخطّأنا إلى غيرنا وسيخطئ غيرنا إلينا فلتتخذ حذرنا، الكيّس من دان نفسه وعمل لِمَا بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمتّع على الله الأمانى، واستغفروا الله.

الحمد لله ربّ العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وليّ الصالحين، اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد.

الدعاء:

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، إنك يا مولانا سميعٌ قريبٌ مجيبٌ للدعوات.

اللهم برحمتك عُمَّنا، واكفنا اللهم شرّ ما أهُمنا وأَعَمَّنَا، وعلى الإيمان الكامل والكتاب والسنة توقّنا، نلّناك وأنت راضٍ عَنَّا.

اللهم إنّنا نسألك الجنة وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل.

اللهم إنّنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار يا عزيز يا غفار.

اللهم بارك لنا في شهرنا، اللهم بارك لنا في رمضان وأَعِنَّا فيه على الصيام والقيام وغنّ البصر وحفظ اللسان، بلِّغنا اللهم ليلة القدر ونحن في عافية منك وستر، واجعل أسعد أيامنا يوم نلّناك وأنت راضٍ عَنَّا، أنت حسبنا عليك اتكالنا.

اللهم كُنْ لأهلنا المُستضعفين في عِزَّة، كُنْ لأهلنا المُستضعفين في كل مكان، عوناً ومُعِيناً وناصرّاً وحافظاً ومؤيداً وأميناً.

اللهم أطعم جائعهم، واكسُ عريانهم، وارحم مُصابهم، وآوِ غريبهم، واجعل لنا في ذلك عملاً مُتقبلاً واغفر لنا تقصيرنا فإنك أعلم بحالنا.

اللهم اجعل هذا البلد آمناً سخاءً رخاءً وسائر بلاد المسلمين، واصرف عن بلادنا كل أذى يا أرحم الراحمين، ونجّ في هذه الحرب كل بريء يا أكرم الأكرمين، وأهلك الظالمين يا أرحم الراحمين.

اللهم عليك بالصهابة المُعتدين فإنهم لا يُعجزونك، اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم، واجعل دائرة السوء تدور عليهم.

اللهم وُقِّ القائمين على بلادنا لما فيه الخير، وللعمل بكتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم، وصلّ اللهم وسلّم وعلى آلِهِ وأصحابه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.